# الأدب الشعبي والمقاومة الجزائرية

بقلم عثمان سعدي

## مدخل :

ظهر اصطلاح : فولكلور Folk-lore في المجلة الانجليزية Athé nocum عدد اغسطس سنة ١٨٤٦ . واصطلاح فولكلور يتكون من كلمتين انجليزيتين : Folk ومعناها شعب ، و Lore ومعناها علم ، والمدلول العام لكلمة فولكلور هو : « علم الادب والتقاليد والآداب الشعبية »(١) فهو يتناول كل ما يتصل بالتراث الشعبي المتجاوب مع مشاعر الغالبية العظمى للشعوب : من اساطير شعبية ، وازجال ، وازياء ، ونقوش ، وموسيقى شعبية وغناء ورقص شعبيين ، يتناولها بالجمع والتحليل ، واستنباط كل ما هو انساني عام من ناحية ، وشعبي خاص من ناحية اخرى .

وبالرغم من ظهور كلمة : فولكلور سنة ١٨٤٦ ، فان الاهتمام بالتراث الشعبي سبق هذه السنة بكثير ، لان الفنون الشعبية لا تعتبر شيئا جديدا في تاريخ الانسانية بل انها كانت الفنون الوحيدة التي خلقت مع الفكر الانساني على مسرح الحياة ، وسايرت تطور هذا الفكر ، وعبرت عن الجماعات الانسانية قبل ابتكار الكتابة .

ونشات النخبة المثقفة في المجتمعات الانسانية على اثر ابتكار الكتابة ، واكتسبت هذه النخبة الطابع الطبقي ، واصبحت تعبر عن حياة فئة قليلة من الجماعات الانسانية : فئة المتعلمين . وسارت الفنون الشعبية ـ عند ظهور هذه النخبة ـ في مجرى اخر ، واستمرت في القيام برسالة التعبير عن الجماعات الانسانية والتجاوب معها . وتطورت الفنون الطبقية الى ان وصلت قمة البعد عن الحياة والواقع ، وبلغت اعلى نقطة في التجريد والانحلال ، ثم بدأت ترجع الى الحياة والى الواقع الاجتماعي ، وصار مفكرو الانسانية يبحثون عن موارد واصول تربطهم بحلقات سلسلة تطور الشعور الشعبي والفنون المعبرة عنه التي فصلتها عنهم هذه المرحلة التجريدية . وهكذا ظهر الفولكلوريون او الباحثون عن هذا التراث الشعبي ، المنقبون عن دفائنه .

ان علم الفولكلور ليس ابتكارا في الفنون البشرية ، وانما هو طريقة من طرق البحث التي تنقب عن الدفائن من الفنون الشعبية ، هذه الفنون التي تقربنا من معرفة خبايا النفس البشرية ، وكيف كانت في الماضي ، والمراحل التي مرت عليها في تطورها ، ثم كيف نستطيع ان نؤسس فنا انسانيا جديدا يتخذ كنوز هذا التراث الشعبي العريق في الاصالة قاعدة له .

يرجع تبلور الاهتمام بالفنون الشعبية الى مرحلتين : اما المرحلة الاولى فهي الفترة التي تم فيها انفصال القوميات الاوروبية عن الكتلة اللاتينية الرومانية . فانتصار اللغات الاوروبية الشعبية عن اللغة اللاتينية الرسمية يعد انتصارا للفنون الشعبية على الآداب التقليدية .

لقد كانت اللغات الاوروبية ـ قبل انتصارها ـ عبارة عن لهجات دارجة تستعملها غالبية الجماعات الاوروبية للتعبير عن مشاعرها وعقائدها وارهاصاتها الانسانية البعيدة ، في قوالب فنية بسيطة كالاسطورة والاحدوثة ، والامثال والحكم ، في قوالب فنية بسيطة كالاسطورة المآتم، والمغنين في الاعراس ، الا انه بالرغم من سيادة لغة الشعب على لغة الاقلية الرسمية في مرحلة الانفصال ، فان التراث الشعبي لم ينتصر على العقلية التجريدية الا في حدود ضيقة للغاية، لان الفكر الاوروبي اخذ من التراث الشعبي لغته ثم طورها وطوعها للتعبير عن الفلسفة اللاهوتية ، وعن ترجمة الفكر اليوناني .

وهكذا اخذ الفكر الاوروبي من الشعب دون ان يأخذ تراثه الثقافي ، وشيئا فشيئا اصبحت هذه اللغة رسمية تدرس في المدارس وتعبر عن افكار فوق المستوى الفكري لغالبية الشعب ، وعن ادب صالوني قصري ، يعكس حياة طبقة ضيقة الافق صغيرة الحجم منحلة الشخصية . اما غالبية الشعب فقد بقيت تعبر عن مشاعرها واذواقها الساذجة بلهجاتها المحلية .

واما المرحلة الثانية فهي الفترة التاريخية التي بدأ فيها نجم الطبقة الارستقراطية الاوروبية يتحدر نحو الغروب. وبدأ نجم الطبقة البورجوازية يظهر في افق اروبا ، واصبح لهذه الطبقة الاخيرة كتاب وفنانون ومفكرون يمجون الذوق الارستقراطي المتصنع ، ويتخلصون من التفكير اللاهوتي الميتافيزيقي ، ويتوقون الى حرية فكرية واجتماعية تخلص الطبقات الشعبية الدنيا من اضطهاد الطبقة الارستقراطية ، ومن سلطة وتحكم الكنيسة البشع . فراح هؤلاء الكتاب الذين ملوا التصنع يعجبون بالجمال الساذج للفن الشعبي ، ويتأثرون به ، وينعكس هذا الاعجاب وهذا التاثر في روائعهم الفنية . فموليير مثلا ، ( ١٦٢٢ ١٦٧٣ ) خلق في كوميدياته شخصيات مستمدة من الواقع متجاوبة مع ذوق الطبقات الشعبية الدنيا ، مما جعل ناقدا كسانت بوف يقول عن بساطة هذا الفنان وواقعيته : «ان كل انسان يعرف القراءة يعتبر قارئا لموليير » (١).

بدأ جمع التراث الشعبي والاهتمام به مع بداية القرن الثامن عشر . ففي سنة ١٧١١ ظهر في مجلة : Addision الانجليزية عدد ٧٤ ـ ٧٥ ، اعجاب Chevy-Chay بما رواه له احد اصدقائه من كلام احد المتسولين . وجمع Ballard اغاني شعبية في ديوانين ، احدهما ظهر سنة ١٧١١ والاخر ظهر سنة ١٧٢٤ . بل ان W. Scott الكاتب الانكليزي المشهور ، جمع قبل ظهور قصصه ديوانا عن الاغاني الشعبية . سماه : « الاغاني الشعبية للحدود

(١) دائرة المعارف الفرنسية ج ١٧ مادة Folk-lore

( ١ ) قاموس « لاروس »

الاسكتلندية » . وقد عم الاهتمام بجمع الادب الشعبي كل البلدان الاروبية ، ففي المانيا نشر Herder ديوانه « اغاني التجمعات المتوحشة ( ١٧٧٨ ) » وفي فرنسا وجه الكتاب : G. Sand ، E. Souvestre, P. Feval عناية كبيرة الى جمع اغاني واساطير شعبية منتشرة في منطقة البروتان La Bretone (١).

اذن فالاهتمام الحقيقي بالتراث الشعبي بدأ مع ظهور الطبقة البورجوازية وتأثر ادباؤها وفنانوها بهذا التراث ، بعد ان ملوا ذوق الطبقة الارستقراطية المتصنع، واصبحوا يقبلون على الاذواق الشعبية البسيطة الساذجة ، ويتجاوبون مع مشاعرها ، ثم تطور هذا الاهتمام بالتراث الشعبي من التأثر والاستلهام الى الجمع والتحليل ، منذ بداية القرن الثامن عشر .

اما في عصرنا الحاضر فقد بلغ الاعتناء بالتراث الشعبي شأوا بعيدا في كتلة الديمقراطيات الشعبية والاتحاد السوفياتي ، التي سادت فيها الطبقات الشعبية الدنيا . فقد اصبحت القوالب الفنية في هذه البلدان كالسينفونية والاوبرا والباليه في الغناء ، والرقص والموسيقى ، والقصة والقصيدة والرواية في الادب ، اصبحت كلها مشحونة بأحاسيس ومشاعر شعبية متجاوبة مع الملايين من الفلاحين والعمال ، معبرة عن شتى المظاهر الاجتماعية باسلوب فني رائع .

## كيف نجمع تراثنا الشعبي في وطننا العربي ؟

ان اللغة العربية قد اجتازت المرحلة الخطيرة على حياتها واصبح انتصارها على لهجاتها امرا مفروغا منه ، اذا عرف ابناؤها كيف يسيرون بها حسب سنة التطور ، ويبتعدون بها عن كل ركود مميت ، ويدخلونها الى صميم معركة الحياة .

ولكي نجعل اللغة العربية تنتصر وتسود وتصبح لغة حياة يجتمع عندها كل اجزاء الوطن العربي ، فيجب ان نخلق نوعا من الاحتكاك بينها وبين اللهجات العامية ، وهذا الاحتكاك وهذه السيادة يتحققان بتخطيط تعليمي وثقافي يتفق عليه المسؤولون عن التعليم والنشاط الثقافي في كل اجزاء الوطن العربي . ولعل كل واحد منا يمكن ان يتصور الخطوط العامة لهذا التخطيط ، فمثلا تنشأ مجالس او اكاديميات محلية في كل جزء من اجزاء الوطن العربي ، ومجالس اخرى عامة تجمع بين مندوبين عن كل بلد عربي .

فاما المجالس المحلية فتعمل على جمع كل التراث الادبي الشعبي : من زجل وامثال وحكم واساطير ، وتأخذ منها الالفاظ التي طوعها الاستعمال الحيوي وتضعها في القالب العربي . وتنشيء وزارات المعارف في اجزاء الوطن العربي فروعا لدراسة الادب الشعبي وتاريخه ونصوصه ، مع توضيح الهدف الرئيسي من دراسة هذا الادب والتقارب الموجود بين الاداب الشعبية في كل اجزاء الوطن العربي ( ٢ ) ترسل هذه الوزارات البعثات الى البلدان التي خطت شوطا كبيرا في دراسة الفولكلور ، وتنشيء كذلك معاهد فولكلورية .

وهذه المجالس المحلية والمجالس القومية ، والمعاهد الفولكلورية تستطيع ان تجمع بين المحافظة على تراثنا الشعبي ـ الذي تكمن في خباياه خطوط شخصيتنا ، والصراع الذي وجد بين هذه الشخصية وبين شخصية اخرى غريبة عن وطننا ـ من ناحية ، والمحافظة على توحيد التعبير اللغوي مع ربطه بمعترك الحياة في كل اجزاء الوطن العربي ، من ناحية اخرى.

وبهذه الطريقة وحدها يمكن ان نخلق كتابا يكتبون وفنانين يبدعون للجموع ، ويعكسون في فنهم اذواق ومشاعر الجماعات ، وآثار تسلسل تراثنا الشعبي البعيد ، ويتجاوبون مع كل الطبقات الشعبية ، لا مع طبقة واحدة تمثل اقلية ضئيلة من الشعب .

اما اذا بقينا نتبع هذه الوسائل في بناء ثقافتنا ، فيمكن ان نقيم ثقافة عظيمة وفنا هائلا ولكنهما ، خاليان من العنصر الشعبي ، غير متجاوبين مع كل الطبقات الشعبية ، منعدمين من اهم حلقة من سلسلة تاريخنا تصل بين انحطاط الحضارة العربية ، وتيقظ الشعوب العربية من جديد، وتحتوي على الصراع بين شخصيتنا وبين الشخصية الاوروبية الغازية ، وعلى المراحل التي نشأت فيها الوطنيات العربية ، وتبلورت اثناءها القومية العربية .

ان كل ما تحتوي عليه هذه الحلقة المفقودة من تاريخنا موجود ولكنه لا يوجد في اسفار الكتب او على شرائط واسطوانات التسجيلات الصوتية فقط، لان جزءا كبيرا مما تضمه الاسفار او تكسه الاسطوانات عبارة عن عمل فني وثقافي يشوهه التقليد الزائف والتصنع المفضوح ـ وانما يوجد بين افواه الرواة الشعبيين قيل بلهجات شعبية محلية .

ولكي نستطيع ان نقيم فنا عربيا شرعيا ، وثقافة عربية كاملة ، فلا بد

(١) دائرة المعارف الفرنسية ج ١٧ مادة Folk-lore

(٢) يوجد تشابه كبير بين الفنون الشعبية في كل بلدان العروبة . ولقد وجدت هذا التشابه بين بعض المواويل والازجال المصرية والجزائرية . فمثلا التعبير المشهور في الاغاني الشعبية المصرية : « الباب يخبط ، روحي يا ام حلي له » يوجد بنصه تقريبا في الاغاني الشعبية الجزائرية : « الباب يطبطب واجري يم حلي له »


ظهر حديثا :

المدخل الى التربية التجريبية

للدكتور عبد الله عبد الدائم

في طبعة ثانية مزيدة ومنقحة

يطلب من دار العلم للملايين وسائر المكتبات الكبرى

ان نجمع تراثنا الشعبي ثم نختار منه التعابير والروائع فنلقنها لاطفالنا في المدارس ، وندرسها لشبابنا في الجامعات ، حتى يمكن لجيل عربي جديد ان ينشأ على حب الازجال والرقص الشعبي ، والاغاني الشعبية ، ثم يعكس ما في روائعها من شحنات فنية هائلة على ما يكتبه ويبدعه .

## الادب الشعبي والمقاومة الجزائرية

ان مقاومة الشعب الجزائري لجيش الاحتلال الفرنسي تعتبر من الروائع الخالدة في تاريخ الانسانية ، فقد استمرت هذه المقاومة من سنة ١٨٣٠ الى سنة ١٩٠٣ ، سقطت البلاد اثناءها في يد الفرنسيين شبرا شبرا .وتعشق الجزائري للحرية هو السبب في استمرار مقاومته لجيش الاحتلال الفرنسي وهو السبب ايضا في عدم استطاعة الاتراك – رغم العامل الديني الذي يربط بينهم وبين الجزائريين – السيطرة على البلاد الجزائرية ، فحكمهم لم يتعد سدس البلاد ، وحتى هذا الجزء كان كالبركان يهز الارض تحت اقدامهم بين اونة واخرى .

وكانت الخمسة اسداس الاخرى المستقلة عن الحكم التركي تتمتع بديمقراطية سياسية ، وبعدالة اجتماعية ، فهي موزعة بين جمهوريات قبلية تضمن للفرد حياة حرة كريمة ، وان كانت بسيطة ساذجة . وكان نظام ملكية الارض الجماعية هو المطبق في هذه الجمهوريات : فالفرد والاسرة لهما حق الاستثمار وليس لهما حق الملكية ، لان الارض ملك للقرية . ويعتبر هذا النظام اشتراكية بسيطة ، لانه لا يبيح بيع الارض ، ويحول دون تركيز الارض بين ايدي المغامرين الشرهين ، ونشوء الاقطاعيات وتكوين الفروق الطبقية .

وهذا النوع من الملكية العقارية هو الذي جعل المقاومة الجزائرية ضد جيش الاحتلال تطول ، فالفلاح الجزائري عندما يقاوم يشعر انه يدافع عن ارضه لا عن ارض اقطاعي معين ، وهذا جعل كل قرية تدافع عن ارضها دفاعا مستميتا . الا ان فشل هذه المقاومة العنيفة امام جيش الاحتلال راجع الى تجزئة المقاومة ، فكل قرية كانت تدافع عن ارضها بمفردها دون ان تكون جبهة مع القرى المجاورة .

وقد تغنى ببطولات هذه المقاومة شعراء شعبيون ، وردد غناءهم ملايين من الفلاحين الجزائريين ، ولكن مرور الزمن ، وعدم اهتمام ، وتجاهل المستشرقين الفرنسيين لهذا النوع من الادب جعله يضيع ، ما عدا بعض القصائد التي جاءت مبعثرة في دواوين بعض المستشرقين ، كالقصيدة التي قيلت في ثورة اولاد سيدي الشيخ سنة ١٨٦٤ والتي جاءت ضمن المجموعة التي جمعها المستشرق الفرنسي « سونك » في ديوانه : « ديوان المغربي في اقوال افريقيا والمغرب ».

وثورة اولاد سيدي الشيخ هذه ثورة شعبية قامت بها القبال المقيمة في جنوب « وهران » بقيادة طريقة « اولاد سيدي الشيخ » ، واستمرت خمس سنوات واخمدت كما اخمدت الثورات الجزائرية العديدة .

وقائل القصيدة احد الشعراء الشعبيين المجهولين من مدينة « الاغواط » ويفتتح الشاعر قصيدته بالتغني « بمعركة الشلالة » التي انتصر فيها الثوار على جيش الاحتلال وقتلوا فيها قائد الحملة وحاكم دائرة البيض الكابتن « بوران – بويسان » . يقول الشاعر : « يا من حضرت خبرنا عما دار في يوم الشلالة ، هذا اليوم المعدود ضمن الايام الخالدة في الزمن ويا من حضرت هذا اليوم انك لاسعد السعداء » :

يا الحاضر عود لخبار واشتاه صار  على انهار الشلالة في الزمان معدود
سعد من حضر في ذاك انهار معدود

ثم يمجد الشاعر ابناء هذه الطريقة الصوفية التي قادت الثورة فيقول :

« لو لم يكن ابناء حمزة لبعض بوران مسيطرا ، وعندما نادى رب العزة جاء محمد وسليمان ، ففك قيد الناس وشرح الاديان ( اي ابان للناس جوهر الدين الذي يأمرنا بطرد الكفار من ديارنا ) ، ثم يشبه قائد الثورة بالسارية التي يقام عليها البناء ، وبالساقية التي تسعى الاجنة :

لو ما ذريـــة حمزه لـــو ابقى ملكها بـوران
امينـين نادى رب العزة جا محمد وسليمان
فك لعباد من اللزة قام بها واشرح الاديان
اعليه متكلين اركيزة، ساقية تروى كل جنان

ثم ينتقل الى وصف موت القائد الفرنسي فيقول : « لقد جعل منك سيدي مسخرة والقبائل شهود فحصروك في البيضاء ( مكان ) كالجرذان يا بوران ، وعندما كان حصينك منهوكا هربت وغلقت الباب وراءك . لقد اضطرت الاصحاب الى ان تشرب من ماء السياخ المالح ، ومروا بك على الخضراء ( اسم مكان ) وانت غائب ، ومهشم بالحديد فانظر ماذا صنع لك الاصحاب : الشحم فوق السهل ساح ورويت منه الطيور واسراب الذباب والنسر اكل الى ان داخ ومعه الحدأة والغراب . والضبع سلخ جلدك اكل من لحمك الى ان شبع ، ثم ادخر الباقي في الشعوب وبالقفاف. ما اجمل جلد هذا القفاء لترقيع الاحذية :

دارلك سيدي كلخمه والقبايل شهود  قطعوك في البيضاء كالجرذان يابوران
منين كان عـويدك لتـــاخ  كنت هـارب واغلقت الباب
كنت تشرب مـن مـا اسبـاخ  جوزوك على الخضراء غـاب
بالحديـد مبخ مبســاخ  شوف ما دارولـك لصحـاب
الشحم فـوق الوطيه ســاح  الطوايـر شبعت .واديـاب
النســر اكـل وداك داخ  والحـدايـة هـي واغـراب
الضبـع في جـلدك اسـلاخ  بالعدل يخـزن فـي الشعاب
مزيـان القفـده للتمـلاخ  كـالقفـا يعجب للسرفـاب

وبعد ان يتعرض الشاعر الى تفاصيل المعركة يختتم قصيدته بقوله : « لقد رمل لك العلجات ، واين تنجو يا ابن الزواف ( اسم فرقة في الجيش الفرنسي ) . وماذا دهاك الى ان تركب هذا المركب الصعب ، فتلعب الهنا مع العراف ( مثل شعبي ضمنه الشاعر عجزبيته ونصه الكامل : ما تلعب الهف مع العراف . اي لا تحول ان تبين عن مهارتك في النشل امام محترفه ) :

فـاع هجـلك العلجـات وين تمنـع يا ابـن الزواف
واش لـزك للضايـات تلعـب الهـف مع العراف(١)

ان الصدق ليشع من هذه القصيدة فكل كلمة منها ناطقة معبرة عن احساس الشاعر المتقد . والروح الشعبية كامنة في تعابيرها وامثالها المتداولة بين الناس المنسجمة مع سياق الابيات : فكلمات « كلخة » و « عويدك » ( تصغير عود ومعناه الحصان ) ، وجعل الضبع يدخر اللحم بالقفف في الشعاب ،وجمال اديم القفن الذي يغري على استعماله في ترقيع الاحذية » كلها تعبر عن البساطة والسذاجة الشعبية وعن هذه السخرية الحادة والاحتقار الشديد اللذين يكنهما الفلاح الجزائري لجيش الاحتلال .

*

ويبدأ الصراع بين الشخصية الجزائرية والشخصية الفرنسية ، فالفرنسيون بعد ان استتب لهم الامر في بعض المناطق ، راحوا يجندون كل قواهم ووسائلهم السيكلوجية والفكرية لتحطيم معالم الشخصية الجزائرية في كيان المواطن ، واحلال معالم الشخصية الفرنسية محلها :

(١) ديوان المغربي في احوال افريقيا والمغرب ( سونك )

ففتحت ابواب الهجرة الى البلاد الجزائرية امام الفائض من سكان البلدان الاوروبية ، وانهال على الجزائر مئات الالاف من المغامرين الاوروبيين ليستوطنوا هذا البلد العربي الغني . ورأت الادارة الفرنسية ان طاقة المقاومة ومقومات الشخصية الجزائرية تكمن بوضوح في اعماق الفلاح الجزائري ، فاتخذت كل الوسائل للقضاء على هذه الطاقة ، ولتفتيت هذه المقومات . وانتبهت الى الخطر يكمن في النظام الاقتصادي السائد بين القبائل والقرى ، في ملكية الارض الجماعية ، وما ينتج عنها من تكامل وتعاون بين سكان هذه البلاد ، وتماسك واتحاد بين القبائل والقرى .

الم تكن اعباء المقاومة العنيفة ملقاة على كواهل الفلاحين ؟ الم يكن السبب في قيام الفلاح بهذا النوع من المقاومة الفذ هو ملكية الارض الجماعية ؟ فكر الفرنسيون في هذه المسائل وهم يضعون الاسس الاولى لسياستهم التي تستهدف القضاء على الشخصية الجزائرية ومحو معالمها، وجعل هذا الوطن المقهور الغنيالواسع المتحكم في جنوب البحر المتوسط وشمال ووسط افريقيا امتدادا لفرنسا . وهكذا راح الفرنسيون يضيقون الخناق على الفلاحين الجزائريين ، فافتكت منهم ارضهم ثم سلمت الى المهاجرين الاوروبيين ، وصدر مرسوم بتحويل ملكية الارض من ملكية جماعية قروية الى ملكية فردية عائلية ، حتى يتسنى للمستعمرين القضاء على جبهة الفلاحين ، وروح التعاون والتكتل بينهم .

ولم يقف الجزائريون مكتوفي الايدي ، بل قاموا بردود فعلية ايجابية احيانا وسلبية احيانا اخرى . وينبه بعضهم الاخر الى الخطط الاستعمارية التي تستهدف القضاء على مقوماتهم الوطنية . وساهم الادب الشعبي مساهمة فعالة في المحافظة على هذه المقومات .

وها هو الشاعر الشعبي « قدورين عمار » المشهور « بقدور الحدبي »في مدينة «الجزائر» ينظم قصيدة طويلة في انتقاد جماعة من المشعوذين والآلاتية اخذهم احد الفرنسيين الى فرنسا لكي يعرض شعوذتهموشطحاتهم على مسارح باريس .

والحقيقة ان هذه القصيدة التي وصلتنا من هذا الشاعر تعتبر قطعة فنية رائعة باسلوبها التهكمي العميق وتعابيرها الشعبية البسيطة ، ومراميها البعيدة . فهي تخلق في نفس قارئها احتقارا لهذه الجماعة ولكل من انساق وراء المغريات الاستعمارية ، ونسي شخصيته ووطنه .

يفتتح الشاعر قصيدته بوصف الزلزال والمجاعة والوباء التي انتشرت في البلاد سنة ١٨٦٧ . فقد هد الزلزال كل القرى بين مدينتي « شرشال » و « البليدة » واتلفت اسراب الجراد كل المحصولات الزراعية ، وانتشر الوباء والقحط :

اجي تشوفا ماذا صار في ذا القام المظلم
الزلزله هدت الديار ايفات تردهم وطنه
حتى لمرار والطيار ما خلاش حتى حيه

ثم يصف بعد ذلك الحالة النفسية لهذه الجماعة عندما تقرر سفرها الى باريس : « فعندما بلغهم خبر السفر فقدوا صوابهم وصاروا يصرخون من شدة الفرح ، ويجرون ، احدهم حافي القدمين والاخر لابس لحذائه . ان الله قد اهانهم في الدنيا » ، ويذكر اسم الفرنسي الذي اصطحبهم وكيف ركبوا جميعا الباخرة وبدأ واحد منهم يشعر بدوران البحر :

سمعوا بسفر اغنيادوا ابدوا يجربوا ويعايطوا
شي حفيان وشي بصباطو رب اغبتهم في الدنيا
الرومي اسمه السلفدور هو ركبهم في البابور
بدوا حد قلبه يدور فال جيت نتقيا

ثم يكشف عن الغرض من تسفير هذه الجماعة الى باريس فيذكر زيارة السلطان التركي عبد العزيز للبلاد الفرنسية ، وعزم نابليون الثالث على تكريم السلطان بعرض مناظر من الفن الشرقي امامه . ثم يذكر الشاعر كيف كان هذا الفرنسي يهين افراد الجماعة ، فيتخذ من الاصطبلات مساكن لهم ويسوقهم امامه كما تساق الحيوانات . لقد صاروا كقطعان البقر ولا ينقصهم سوى الرعاة :

راحوا قاصدين لباريس ياش يلقوا عبد العزيز
وقفهم الرومي كيف ابريز بين البحر والكنيسية
يرقدهم بالتعزيز يديهم للساسية

✶

حبسهم الرومي في كوري يخرجهم بالكوميانية
ردهم يشبهو للبقري تحصهم غير المحاحية

ثم يصف كبير المزمارين وصفا تهكميا لاذعا فيقول : « ان كبير المزمارين المخنث الذي له لحية اشد بياضا من الصوف ، قصد باريس يا نهاره في النار .. واذا رجع مفضوحا سيبقي شائعات في الدنيا » :

كبير الزرناجية المخروف اللي لحيه ابيض من الصوف
قصد لباريس يشوف يا اتهاره في الحاميا
واذا رجع كالمكشوف يبقى شوايع في الدنيا (١)

ان ثقافة الشاعر الشعبية هي التي عمقت نزعة التهكم عنده ، فهو كما يبدو ملم بالامثال والتشبيهات والاوصاف والتعابير الشعبية ، التي جعلت شعره خاليا من اسلوب الهجو الخشن . انه يمسخ مهجوه مسخا فظيعا باسلوب جميل وبسيط دون ان يلجأ الى السب والشتم المباشر . انه يجعل القارىء يحتقر الهجو وهو ضاحك منشرح . والسبب في سمو هذا الشعر التهكمي هو التعابير الشعبية التي استعملها الشاعر مثل : ( العام المطيار .. رب اغبنهم في الدنيا .. يديهم للتساسيه .. تخصهم غير المحاحية .. يا انهاره في الحاميه .. شوايع في الدنيا ) ان الحدة التي توحى بها هذه التعابير تشبه لدغ العقرب التي تطلق سمها دون ان تحدث ضجة .. ان هذا الاسلوب الشعبي التهكمي الذي جمع بين البساطة والعمق هو الذي جعل معاصري هذا الشاعر يطلقون عليه اسم : موليير الجزائر .

✶

وتكتشف الادارة الفرنسية مدى تغلغل العقيدة الدينية في نفوس

---

(١) ديوان المغربي في احوال افريقيا والمغرب ( سونك )


صدر حديثا :

فصول سياسية

دراسات عميقة في المشكلات السياسية المعاصرة في العالم العربي

تأليف

خلدون ساطع الحصري

الجزائريين ، وكان الآباء الروحيون للجزائريين ، والمحافظون على العقيدة الدينية في ذلك الوقت هم مشائخ الطرق الصوفية ، فتعمل السلطة الفرنسية على خلق صداقة بينها وبين هؤلاء المشائخ ، وتغدق عليهم الالقاب والنياشين ، وتخصهم بالامتيازات ، وتحيطهم بهالة من القداسة والاحترام . وسوف تنجح السلطات الفرنسية فيما بعد ، في كسب صداقتهم وتسخيرهم لخدمة اغراضها : كتخدير الشعب والابتعاد به عن كل ما يمكن ان يتيح له فرصة فحص واقعه السيء ، وثورته على هذا الواقع ، وكتوجيه الاهالي نحو الاهتمام بالغيبيات ، وملء فراغهم بالشطحات الصوفية وزيارة اضرحة الاولياء الصالحين .

وبدأت الادارة الفرنسية تعمل على خلق هذه الروابط ، في اواخر القرن التاسع عشر ، وكان اول ما قامت به ، توجيه دعوات الى هؤلاء المشائخ لزيارة فرنسا . وينتبه الشاعر الشعبي ذو الحساسية الخبيرة المجربة الى الخطر المحدق بهذه الدعوات .

وهذا شاعر من « اولاد علال » ( دائرة البيض ) ينظم منظومة يعبر فيها عن ارتيابه وشكوكه حول استدعاء الحكومة الفرنسية للسيد محمد ابن بلقاسم « شيخ زاوية الهامل » لزيارة البلاد الفرنسية ، ويقال ان السلطات الفرنسية امرت هذا الشيخ بتلبية رغبتها عندما حاول التخلص من الدعوة .

يصف الشاعر خبر الدعوة الفرنسية بالشؤم : « فهو خبر لا يرضى عنه احد ، ويؤثر على صحة كل من يسمعه فيضعفها » . ويتدخل الخيال الشعبي فيصور للشاعر سيده وهو يشرب اقداح الروم من ايدي الفرنسيين . ثم يذكر الحاح الحكومة الفرنسية في دعوتها ، وكيف كانت ترسل كل يوم موزع البريد حاملا معه رسالة الى الشيخ :

يا سيدي مشيان هذا الخبر راه يغير  واللي يسمع هذا الخبر ليس يبغيه
قالو لي قسوم سربوا اليه الروم  من يسمع هذا الخبر ليس يبغيه
هذوا النصارى والفواهذه الخطرة  كل يوم ينوضوا يوشاط اجيه

ثم سرعان ما تغلب نزعة الاستسلام الغيبي على الشاعر فيرد سفر سيده الى ارادة الاقدار ، ويجعله مسطورا مكتوبا قبل تحققه في الواقع :

مدره ربي كداتو محبوبي  ما يعرف ذا البر ما ضاري عشيه
هذه الخطرة سبقت له في القدره  هذا المقدر من خالقي مكتوب عليه(١)

## الادب الشعبي والكفاح السياسي

في سنة ١٩٢٠ ظهر الامير خالد احد ابناء العائلات الكبيرة وبدأ يمنح نضال المدينة المائع الذي يداني افق الجزائر منذ الربع الاخير للقرن التاسع عشر ، فجمع حوله طبقة الموظفين والنواب لتحقيق مطالب متواضعة بسيطة (٢) . ولكن هذه الطبقة البورجوازية التي نشأ ابناؤها في مدارس المستعمرين وتخرجوا على ايدي اساتذة الاستعمار ، تخون خالدا الذي ييأس منها ويكتب عن ابنائها في رسالة وجهها الى صديقه الفرنسي الحر Victor Spilman قائلا : « منذ خمس وتسعين عاما (أي منذ دخول الفرنسيين) وهؤلاء العبيد (أي البورجوازيون) يتحكمون . ولا تنس ان هذا الجيل المثقف قد ولد تحت نير الاستعمار ، وربي في مدرسة الاستعمار الذي علمه مبادىء الطاعة العمياء » ( ١ ) . ثم يسخر خالد في رسالته موضحا عجز ابناء هذه الطبقة عن القيام بدور نضالي حاسم فيقول : « ولسوء حظ مثلي ومثلك فان هؤلاء ( اي البورجوازيين ) لا يملكون من الوسائل ما يحاربون بها جيش الرأسماليين وكبار الملاك الاستعماريين الذين يملكون في ايديهم الذهب والسلطة » (١)

وتنفي السلطات الفرنسية خالدا الى خارج الاراضي الجزائرية ، ويغادر هذا القائد المخلص ارض الجزائر وهو ناقم على طبقته المتفسخة واضع آماله في الجماهير الشعبية الكادحة : « ان الجماهير تئن تحت وطأة شديدة من الظلم والاضطهاد ، ولهذا فيجب عذرها اذا هي لم تتحرك ولكن هذه الجماهير الجاهلة السلبية الان ، هي التي ستقوم في الغد القريب بدور تحرير نفسها . » (١) .

وتحققت نبوءة خالد ، فقد تكونت منظمة « نجم شمالي افريقيا » في نفس السنة التي غادر فيها الجزائر ( سنة ١٩٢٥ ) .

واستمرت حركة نجم شمال افريقيا العمالية في تنمية الوعي الوطني بين الجماهير الشعبية . الى ان جاءت سنة ١٩٣٧ حيث تطورت واشتد ساعدها واصبحت تحمل اسم : « حزب الشعب الجزائري » وهو حزب ثوري يعتمد على التنظيم السري . واستمر هذا الحزب قويا معبرا عن اماني الشعب هادفا الى الاستقلال التام عن طريق الثورة المسلحة .

وجاءت الحرب العالمية الثانية فبدا في الافق الجزائري ابناء العائلات البورجوازية وبدأوا يسيطرون على الموقف ويؤلفون الاحزاب ، بل ويسيطرون حتى على الحزب الثوري الشعبي الجماهيري ، وكاد هؤلاء ان ينحرفوا بخط سير النضال الايجابي المعتمد على القاعدة الشعبية ، ولولا محافظة بعض الشبان الثوريين على الايديولوجية الثورية لحزب

ـ البقية على الصفحة ٧٢ ـ

(١) ديوان في احوال افريقيا والمغرب ( سونك )

(٢) من مقال للاستاذ مصطفى الاشرف بمجلة عدد اكتوبر سنة ١٩٥٦


## مجموعات « الاداب »

لدى الادارة عدد محدود من مجموعات السنوات الاربع الاولى من الآداب تباع كما يلي :

| | غير مجلدة | مجلدة |
|---|---|---|
| مجموعة السنة الاولى | ٤٥ ل.ل | ٥٠ ل.ل |
| « « الثانية | ٢٥ « | ٣٠ « |
| « « الثالثة | ٢٥ « | ٣٠ « |
| « « الرابعة | ٢٥ « | ٣٠ « |

# الادب الشعبي والمقاومة الجزائرية

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٣٠ ـ

الشعب الجزائري .

ولم يسكت الادب الشعبي ازاء هذه الاحداث . فهذه منظومة قيلت سنة ١٩٤٤ بمناسبة انعقاد مجلس لجنة الاصلاحات بالجزائر الذي ألفه ودعا لحضوره جماعة من الشخصيات التي تمثل شتى الاتجاهات السياسية والحزبية . وكانت الحكومة الفرنسية هي التي دعت هذه اللجنة الى الانعقاد لكي تتفاوض معها حول مصير الجزائر بعد انتهاء الحرب .

وتكشف هذه المنظومة عن التناقض الموجود بين الاحزاب الجزائرية في هذه الفترة الدقيقة من تاريخ الجزائر . وهي تضع امامنا برامج كل حزب ، وتشخص لنا شخصية كل زعيم في دقة ومهارة تشوبها الحكمة الشعبية العميقة .

يفتتح الشاعر قصيدته بطلب النجدة على لسان الجزائري من الامريكان والانجليز الذين نزلوا شمال افريقيا ، والذين لم ير سكان هذه البلاد شرا منهم ، فيشكو له آلامه وكيف اجاعه الفرنسيون ، وقضوا عليه ، وحاربوا عقيدته ، ويذكر لهم كيف كانت فرنسا متجاهلة لحقوقنا الى ان دارت عليها الدوائر وضيق النازيون عليها الخناق فالتفتت الينا لتمنحنا « ربع جميل » وهو جمعها لاعيان البلاد لتجس نبضهم .

يا عمي جوني — لفرنسيس راهم ظلموني — بالشر فتلوني
سلطوا على الميزريا (misère)

انت سكسوني — ما شفناش منك دوني — قرب الهوني
نحكي لك ما صاير بيا

لفتنا فنات — حتى اجو معنا اتفرمات — ما بقات حياة
الذكريات كثرت عليا

فرنسا المعهورة — باعمالها الشينة مشهورة — كدور الدوره
تعمل فينا ربع امزيا

جمعت الاعيان — جابتهم من كل مكان — داروا ديوان
ياش يتشاوروا في الحرية

وبعد ان ينتهي اعضاء اللجنة المحترمة من خطبهم يأتي دور الممثل الرسمي للحكومة الفرنسية ، فينعته الشاعر بصاحب السعادة ، ويظهر الكبر والغرور الذي ينتاب المسؤولين الفرنسيين في الجزائر ، فهو يتكلم في ترفع وكبر وباسلوب ينم عن احتقاره التام لهذه الشخصيات الجالسة امامه ، وبلهجة يفهم منها ان الحكومة الفرنسية كانت تقرأ حسابا مبالغا فيه لهؤلاء الزعماء السياسيين . اما وقد اجتمعوا فانهم لم يعبروا الا عن شيء واحد هو التناقض بين اتجاهاتهم وعدم اتفاقهم على فكرة واحدة ، مما يجعل الحكومة الفرنسية ترتاح الى عجزهم التام عن القيام بأي عمل يذكر :

سينيك سيلانس — مسيو قولو قال سيلانس — يباد كنفيونس
لزراب كامل حيلية

ابري لقير — رانا ننظر في لفير — ايقاوا على خير
ما نتحبكمش قولوا لنا

ان هذه القصيدة تعتبر من روائع الادب الشعبي الحديث ، فقائلها استطاع ان يجمع في مقطوعاتها القليلة كل الاتجاهات السياسية الجزائرية موضحا برنامج كل حزب ومحللا لشخصية زعمائها . واللغة التي استعملها الشاعر بسيطة لها مرونة فائقة فهي الى جانب صياغتها لتعابير وأمثال شعبية ، تصوغ جملا فرنسية بأكملها في يسر وبساطة .

## الملحمة الشعبية وثورة اول نوفمبر

في سنة ١٩٤٧ بعد ان خرج زعماء الاحزاب بدستور هزيل ، بدأت عناصر البورجوازية تسيطر على الكفاح السياسي في الجزائر ، ولم تقتصر هذه السيطرة على « حزب البيان » البورجوازي الصرف او على جمعية العلماء التي تعتمد في تكوينها على العائلات البرجوازية بل امتد الى حزب الشعب الجزائري ، واصبح لهذا الحزب جناح رسمي ويدعى « حركة انتصار الحريات الديموقراطية » وهو الجناح الذي سيطر عليه ابناء العائلات المثقفون : المحامون والاطباء والاساتذة . والمنظمة السرية (O.S) التي بقيت محافظة على الاتجاه الثوري لحزب الشعب وهو الايمان بالاستقلال وبالثورة المسلحة كوسيلة لهذا الاستقلال .

وهكذا ظهرت الطبقة البورجوازية في الميدان مرة ثانية ـ منذ ايام الامير خالد ـ وراحت تتبع طرقا عقيمة في الكفاح كالمشاركة في الانتخاب والاحتجاجات والمطالب المائعة . واستمرت قيادة هذه الطبقة من سنة ١٩٤٧ الى سنة ١٩٥٣ حيث بلغ تفسخها القمة .

والسبب في فشل البورجوازية الجزائرية في قيادة الكفاح السياسي راجع الى عاملين : اما العامل الاول فطبيعة البناء العضوي للاستعمار الفرنسي ، فهو استعمار يتغلغل الى ابسط مظاهر الحياة الاجتماعية للبلدان التابعة لنفوذه ، وهذا يجعل التخلص منه لا يكون الا بثورة تقلب الاوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية رأسا على عقب . اما الاستعمار الانجليزي فبناؤه العضوي بناء فوقي يحكم البلاد بواسطة جماعة من سكانها ، وهذا هو الذي جعل البورجوازية المصرية مثلا تقوم بدور فعال في تاريخ الحركة الوطنية ، وتنجح في توصيل سفينة الكفاح الى شاطىء السلامة .

واما العامل الثاني فهو عدم مرونة هذه الطبقة في مسايرة سنة التطور ، وجمودها وسط الطريق الذي رسمته لكفاح الشعب الجزائري في سبيل استقلاله ، فقد اصبح لهؤلاء الزعماء البورجوازيين مصالح ادبية وامتيازات مادية مرتبطة بالنشاط السياسي . ولم يستطيعوا التغلب على انانيتهم ومصالحهم الشخصية فيغيروا في اتجاهاتهم وفي طرق كفاحهم . ولم يحاولوا ارهاق افكارهم بالبحث عن طريق جديد بعد ان فشل هذا الطريق .

وهكذا اصبح هؤلاء السادة يدورون في حلقة مفرغة كما يدور ثور الطاحون يقطع الاميال يوميا وينهك قواه ولكن الخلافة لا تفارق سنتمترات محدودة .

وثورة اول نوفمبر ليست من خلق زعماء هذه الاحزاب ، وانما هي ثورة قامت على سواعد الفلاحين ، وتحت قيادة الشباب الثوري الذي انفصل ايديولوجيا عن الاحزاب البورجوازية ، بعد ان ادرك افلاس بضاعتها واصابة عملتها بالتزييف ، وحافظ على الاتجاه الثوري للطبقات الكادحة . ويخطىء كل من يتوهم ان هذا الشباب الثوري ينتمي الى الطبقة البورجوازية لان هؤلاء الشبان اغلبهم فلاحون انحدروا من القرية ، واكتسبوا شيئا بسيطا من الثقافة يصل اقصاه الى درجة

المتوسطة ، أو نوعا من التجارب واتساع الافق بمشاركتهم فى الحرب العالمية الثانية داخل اطار الجيش الفرنسي . وحتى اذا اكتسبوا بعض خصائص البورجوازية فان هذه الخصائص لم تتغلغل ولم تتأصل فى نفوسهم ولم تؤثر على طريقة تفكيرهم .

واذا استعرضنا اسماء بعض هؤلاء الشبان الثوريين رأينا مدى سلامة هذا الرأي : فأحمد بن بللا وأبو ضياف من عائلتين فقيرتين .. وعمران وكريم ، من قرى جرجره وزيفود يوسف كان حدادا ، ومصطفى بو العيد انحدر ابوه من القرية وسكن مدينة صغيرة وكون ثروة لا بأس بها ، ولكن بما ان الخصائص الطبقية البورجوازية لم تتأصل فى نفسه فقد باع هو وعائلته كل ما يملك ـ قبل قيام الثورة بأشهر ـ ثم اشترى بما باع اسلحة وذخائر وملابس لجيش التحرير واعتصم بجبال اوراس .

ان ثورة اول نوفمبر اعدت فى الجبال على سواعد الفلاحين ، ثم نزلت لتفرض سلطتها على المدن ولتملي على زعماء الاحزاب المعتدلين اللاثوريين شروطها . لقد نزل الفلاح الجزائري بهراوته من قمم الجبال ليسطر الطريق للمثقف ، ولابن العائلة ثم ليسوقهما امامه ويضطرهما الى مسايرة التيار .

وهذه الملحمة التي سنعرضها الان قيلت فى بطولات جيش التحرير الوطني الجزائري بولاية اوراس التي تبدو فيها عبقرية الفلاح الجزائري وطاقاته الهائلة واضحة . ان كل القواد او بالاحرى كل الجنود فى هذه الولاية ، اذا استثنينا البطلين الخالدين مصطفى بن بوالعيد وشيهاني البشير ، من الفلاحين البسطاء الذين لم يشاركوا قبل قيام الثورة فى أي نشاط حزبي .

كان الفلاح الجزائري ينضم الي صفوف جيش التحرير بعضاه ثم سرعان ما يقتل بهذه العصا او بالحجارة جنديا فرنسيا فى اشتباك من الاشتباكات ، ويأخذ منه بندقيته . ان الشيء الذي جعل اندفاع الثورة الجزائرية قويا واجتيازها للمرحلة الخطيرة على كل الثورات بسلام ، ان الفلاح كان لا يفكر الا فى امرين ، اما ان يفتك البندقية من يد الفرنسي او يسقط شهيدا، فى سبيل الوطن ، دون ان يحوم تفكيره حول كرسي او مركز .

وكما عبر الفلاح الجزائري عن طاقات شعبه فكذلك عبر عن الثورة الجزائرية بفنه وادبه . ولعل اروع ما سمعت فى هذا الموضوع الملحمة الشعبية : « حزب الثوار الله ينصر » التي تعتبر من الروائع الخالدة فى تاريخ الادب الشعبي الجزائري . ولقد حدثني القائد « الوردي » عن هذه الملحمة فاخبرني انها ملحنة تلحينا بسيطا يشبه لحن ملاحم ابن زيد الهلالي والسيد علي جعفر البرمكي . وبساطة لحنها وشعبية تعبيرها جعلتها تنتشر انتشارا واسعا بين صفوف الشعب : فجماعة جيش التحرير عندما تنتهي من المعركة او الاشتباك او الكمين تجتمع فى مغاور جبال الجزائر وتنشدها انشادا جماعيا . والاطفال يغنونها فى حلقات العابهم . والمرأة تترنم بها وهي تدير رحاها ، او تهدهد طفلها . انني ما قابلت مجاهدا الا وجدته يعرفها ويردد بعض مقطوعاتها .

ويدعى قائل هذه الملحمة « كمال البوقسي » نسبة الى « اولاد بوقسة » احد فروع قبيلة اللماشة التي تعتبر قبيلة من القبائل العظمى فى الجزائر والتي اشتهر فرسانها باتقان فن الفروسية والمحافظة على خصائصه الجزائرية . والشاعر شاب فى العقد الثالث ، انضم الى صفوف جيش التحرير فى الاشهر الاولى للثورة واستشهد فى احدى معارك اواخر سنة ١٩٥٦ . وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب . ويقول القائد الوردي ان الشاعر سجل كل المعارك التي دارت فى ولاية اوراس وخاصة فى منطقة النماشة من اول يوم انضم فيه الى صفوف الثوار الى ان سقط شهيدا فى ميدان الشرف . واما الوقت المناسب لنظم الشاعر كان يجتمع الثوار بعد فراغهم من المعركة ثم يقول احدهم لكمال : انشدنا ، أو هات ما عندك. ويطرق الشاعر رأسه فى خشوع . ويسود سكون عميق ، ثم سرعان ما يرفع الشاعر رأسه ويرتجل المقطوعات حول المعركة الاخيرة التي فرغ هو وزملاؤه منها . وكان المجاهدون يقاطعونه بصيحات الاعجاب وسمات التأثر بادية على وجوههم .

وطريقة انشاد هذه الملحمة جماعية : تبتدىء الجماعة كلها فى انشاد الافتتاحية ، ثم يسكت فريق منها ويسترسل الفريق الاخر فى انشاد المقطوعات التالية . وكلما انتهى هذا الفريق من مقطوعة ردد الفريق الاول الافتتاحية . وهكذا الى ان ينتهي الانشاد .

ويسمى عمل المجموعة الاولى بالاصطلاح الشعبي « زراعة أو غناء » ، وعمل المجموعة الثانية « خماسة او ترجيع » فيقال مثلا : هذا يزرع وهذا يخمس . أو هذا يغني وهذا يرد عليه .

ولم تمكني الظروف سوى من الحصول على مقتطفات متفرقة من هذه الملحمة . الا ان هذه المقطوعات المتفرقة التي التقطتها من افواه المجاهدين الذين استطعت الاتصال بهم ، تعطينا صورة عن خط سير الملحمة العام ، وعن اسلوبها وطرق تعبيرها ومدى سعة ثقافة قائلها الشعبية .

وها هو الشاعر يذكر لنا معركة « فاساس » ، وهي عبارة عن كمين نصبه الثوار لاخطر ضابط فى الجيش الفرنسي برتبة « جنرال احتياطي » ويدعى « موريس دو بوا » . اشتهر هذا الجنرال بالشجاعة والذكاء ، فقد كان يتكلم اللغة العربية بطلاقة ، ويحفظ شيئا من القرآن ويدعي فهم النفسية الجزائرية . وهذا هو الذي جعله يتوهم ان فى استطاعته القضاء على الثورة الجزائرية اذا فوضت له السلطة المطلقة فى المنطقة التي يراها العرق النابض للثورة . وتطوع الجنرال بستة اشهر يضمن خلالها القضاء على الثوار فى منطقة « فينيتس » ووافقت القيادة الفرنسية على ذلك وعين حاكما عسكريا واداريا لهذه المنطقة . ومضى الشهر الاول والثاني والثالث ولكن دون ان يفي الحاكم الفرنسي بالوعد الذي قطعه للقيادة الفرنسية ، فيجن جنونه ويصمم على الانتقام من الاهالي العزل الذين رآهم يؤيدون الثوار ويؤازرونهم ويقدمون لهم كل مساعدة ... ويغادر الجنرال مركز « فينيتس » العسكري حاملا معه قائمة بالعناصر الشعبية المخلصة للثورة ، وقائمة اخرى بالعناصر التي أبدت استعدادها للتعاون مع الفرنسيين ، وتقريرا منفصلا عن الطرق التي يجب على الجيش الفرنسي والادارة الفرنسية اتباعها للقضاء على الثوار .

ولم يكد هذا الحاكم يبتعد اميالا عن المركز تصحبه قافلة عسكرية مكونة من ستة وثلاثين جنديا مزودين بالاسلحة ، حتى اعترضه الثوار ونصبوا له كمينا قتلوا فيه الجنرال واركان حربه ، ثم اسروا الباقين . وسيطروا على كل اسلحة القافلة . ووضعوا ايديهم على حافظة اوراق الحاكم .

ان نجاح هذا الكمين يعتبر انتصارا عظيما لجيش التحرير فى ايامه الاولى . وقد خلده الشاعر الشعبي كمال ، وها هي الابيات المتفرقة التي استطعت ان اجمعها من افواه الرواة تشهد على ذلك .

يجلس الشاعر الثائر الى زملائه الابطال حول ابريق الشاي الاخضر مغمورين بأشعة القمر الفضية ، ومناظر الطبيعة الجبلية الجزائرية الخلابة

تحيطهم من كل جانب : اشجار الصنوبر الباسقة وصخور المتعرجات الفرانيتية ، ومداخل الكهوف المظلمة . ويطلب الثوار من كمال ان ينشدهم حول معركة « فاساس » الخالدة . ويرفع كمال رأسه الى سماء الجزائر الزرقاء ويتخيل نجومها بريق عيون تبتسم اعجابا به وبزملائه الابطال ، ثم ينطلق فى انشاده وعيناه لا تفارقان السماء وكأنه يريد ان يستمد من نجومها بريقها الخالد ويمزجه بشعره ، حتى تشاهد فيه الاجيال العربية الآتية صورة حية لبطولات اجدادهم فى الجزائر :

« فيوم فينيتس يوم شهد الاهوال ، وغاصت القلوب فى صدورها من شدة هوله ، وظهر فيه الشجاع من الجبان » :

خطرت فنيس اللي توقع فيها الدحيس
لقلوب تغيص اللي ماشوا شجيع يبان
حزب الثوار الله ينصر

ثم ينتقل الشاعر الى الاشادة بذكر قائد «دائرة فنتيس» عمر البوقصي الذي قاد المعركة : « فالرئيس عمر حضر يوم فاساس ، فأعطى صدره للرصاص فى صبر ، ومعه شبان صغار ، معه جنود بالحراب ، سقط منهم البطلان « تركيبة والغربي » شهيدين بعد ان حصدتهما نيران المدافع الرشاشة الفرنسية . »

الريس عمر خطرت فاساس احضر
اعطى صدره للحب اصبر فعاه وليدات اصغار
حزب الثوار الله ينصر

معاه وليدات جندية بالبيونات
تركيبه والغربي مات روزاهم حب الرقال .
حزب الثوار الله ينصر

ونلاحظ ان الشاعر يستعمل كلمات فرنسية كـ « بايونات : حربة ، روزاهم : حصدهم ، الرقال : مجموعة من الطلقات التي تنطلق من الرشاش » . وهي كلمات تتصل كلها بالناحية العسكرية . وما اجمل تعبير : « وليدات صغار » ، انه تعبير شعبي يدل على الحب الممزوج بالاعجاب ، فكأن الشعب الجزائري كله يتكلم على لسان الشاعر من خلال هذا التعبير .

ثم يتكلم عن الحاكم الفرنسي القتيل : « فمسيو موريس طلب المجيء الى فنتيس متطوعا ويتوعدهم ( اي الثوار ) ويقول : سوف اقضي على « الفلاقة » ( وصف يطلقه الفرنسيون على الثوار ومعناه : المتمردون ) . ولكن عندما عثروا عليه خفر عينيه كما تخفرهما العروس فى مخدعها .

مسيو موريس طالب فولنتي فنتيس
... ... ... ... ...
حزب الثوار الله ينصر

يتحلف فيهم قال الفلاقة نقضيهم
كطاحوا بيه ... ... ...
حزب الثوار الله ينصر

كطاحوا بيه عاد يذبل فى عينيه
العسكر هذا واسهر بيه افروخه وحامت الاطيار
حزب الثوار الله ينصر

ونلاحظ فى هذه المقطوعة مدى عمق السخرية الشعبية وحدتها ، فالجنرال الفرنسي هدد ووعد الثوار شرا ، ولكن عندما وقع بين ايدي الثوار خفر عينيه كالعروس فى ليلة زفافها .

ويشخص الشاعر بطولة احد ابطال الثورة الخالدين يسمى « حم الخضر » ويتدخل الخيال الشعبي فيضفي على هذه البطولة جمالا رائعا. « فيوم ( حسي خليفه ) حضره ابن امرأة سوداء يدعى الاخضر وترك الاعداء جيفة ، وجعل من كل شعب مستشفى لجثثهم . انه « حم » جمع فى يده بين البطولة والسلاح الجديد ، ان قلبه من حديد وفى سبيل وطنه يلقي بنفسه فى النار . ما اجمل يديه وهما تمسكان ببندقية نواحة ذات اجزاء سليمة موصى عليها من مصنعها ( أي فكأنها مصنوعة خصيصا لهذا البطل ) . وعندما صمم الاعداء على نصب كمين له ، وقال لهم رئيسهم : احضروه ، ذهبوا اليه ووجدوه فى عرينه ولكن جبنوا ولم يجرؤوا على اطلاق عيار ناري واحد ، وهكذا رجعوا ببنادقهم حبالى لم تمس ذخيرتها » :

انهار حس خليفه راو لخضر داواه وصيفه
خلاهم جيفه كل شعبة فيها اسبيطار
حزب الثوار الله ينصر

حم الصيد بطوله واسلاح جديد
والقلب احيد على وطنه يزوم للنار
حزب الثوار الله ينصر

انهار اللحصوه والكافر قالهم جيبوه
واشوي لفوه رام ودوا الدفرات اعشار
حزب الثوار الله ينصر

( الدفرات : البندقيات . اعشار : حبالى تقال للحيوان فقط .. )

ما اجمل تعابير : « كل شعبة فيها اسبطار . يزوم للنار . والدفرات اعشار . » انها تحتوي على شيء لا يوجد فى الادب الرسمي ، ففيها بساطة وسذاجة جميلة ، وتشابيه قريبة من الواقع وبعيدة عن كل تعقيد وتجريد .

ويمجد الشاعر بطولة قائد آخر فيقول : « ان ساعي الشجاع احاطه جيش الاعداء من كل جانب ، ولكنه ابى ان يستسلم ، أو يستكين ، ويا لجنون الكفار المضابيع ( من ضبع ) الذين ينتظرون منا الاستسلام ، انهم مساكين يتوهمون ان معركة مع الثوار تشبه الجلوس فى حانة المحطة . ويا لبطولة « ساعي » انه ماسك بمدفع رشاش ، وبطلقة واحدة يسقط اثنين . مساكين رفاق العجوز ( لقب شعبي يطلق على فرنسا ) انهم يظنونها قدحا من النبيذ » :

ساعي السجيع والسر كل ما باش يطيع
الكفرة مضابيع حسبوها تبرنت لغار
حزب الثوار الله ينصر

في يد مطريوز بالضربة تطيح بالزوز
ارفاقه العجوز حسبوها طاسة ديفان
حزب الثوار الله ينصر

فتعابير « حسبوها تبرنة لغار : أي حانة المحطة . حسبوها طاسة ديفان : أي قدح من الخمر . وتلقيب فرنسا العجوز التي أكل الدهر عليها وشرب » كلها تحتوي على السخرية الشعبية الحادة الممزوجة بنوع من الاعجاب بقوة الشعب وبنوع من الاحساس بتفوق الثوار على جنود الاستعمار فى الشجاعة والاقدام والمهارة العسكرية .

ويتكلم الشاعر الشعبي عن الاحداث السياسية فى القطر الشقيق ، تونس ، فيقول :« يا فرنسا الخبيثة لقد أزاح الثوار الجزائريون الستار عن مؤامرتك ، فتونس خنت العهد معها ، اما الجزائر فقد نبهت للخطر وتحاشت المكيدة » :

فرنسا الخبيثة فكراتك راح فاقوا بيها
تونس خنتيها الجزائر فاقت بلفار
حزب الثوار الله ينصر

القاهرة

**عثمان سعدي**